نابليون والفرنسيون فى مصر والأرض المقدسة (1798 -1801)
(قراءة نقدية)

أ.د. ليلى عنان

دراسات مقدمة فى ثانى لقاء دولى لمؤتمر الدراسات النابليونية ، وتم عقد الندوة فى إسرائيل فى شهر يوليو من العام 1999 وتم نشرها فى العام 2002 تحت إشراف "الجمعية الإسرائيلية للبحث النابليونى" فى تل أبيب، و"الجمعية الدولية النابليونية" فى باريس بفرنسا.

قدمت فى الندوة الكثير من الأوراق التى لم ينشر منها إلا 26 بحثاً ، 20 ورقة مقدمة باللغة الإنجليزية، و6 فقط باللغة الفرنسية، وساهم من الجمعية الإسرائيلية فى هذه الندوة أحد عشر إسرائيلياً.

كانت المقدمة للأستاذ الإسرائيلى "موردخاى جيشون"، من المشرفين على تنظيم الندوة، وجاء عنوانها: "خصوصيات الحملة الشرقية لنابليون": مقدمة تؤكد هذه المقدمة بعض الحقائق الغريبة، خاصة أن تاريخ الندوة 1999 بعد أن نشر فى فرنسا، ومنذ الستينيات، كثير من الكتب التى تدحض المسلمات التى قررها المعجبون بنابليون لمدة قرنين من الزمان، ويعيدها "جيشون" بنفس مطمئنة، ولا عجب، فأحدث مراجعة نشرت عام 1992، وأهمها كتاب "كريستوفر هيرولد" عن الحملة المنشور عام 1964. وفى الهوامش، تأكيده أن كل الأساتذة المدعوين "unbiaised"

أى موضوعيين ... لِمَ هذا التوضيح الغريب؟ أو ليس من المفترض أن يكون الأساتذة علميين موضوعيين؟

نفهم من هذه المقدمة، لِمَ كان الاهتمام "بنابليون فى الأرض المقدسة" وليس فى "سوريا" كما هو معروف: إن أستاذنا هذا يؤكد فى صفحة كاملة حقيقة مشروع نابليون المتمثل فى خلق وطن قومي لليهود فى المنطقة، تكون القدس عاصمة له؛ ويقول بسرعة فائقة: إن الوثيقة التى نتحدث عنها "قد تكون مزورة"، ولكن دلائل كثيرة تؤكد أنها حقيقية... هذا هو إذاً هدف المؤتمر. ولا أعرف كيف كان حال الأستاذ "جيشون" عندما أكد أستاذ إسرائيلى آخر، هو "ديفيد ماندلسون" فى نفس الندوة – كما سنرى فيما بعد – أن الوثيقة مزورة دون أدنى شك، كأن، فى المقدمة يؤكد كاتبها الأستاذ منظم الندوة، أن فكرة إنشاء وطن لليهود فى الأرض المقدسة كانت مطروحة فى أوروبا منذ القرن الثامن عشر، وتكاد تكون هذه المعلومات أهم ما يوجد، بل كل ما يوجد فى مقالة "المقدمة".

إنه يتحدث عن نابليون وكأنه آت من فراغ، يبتدع أشياء هى فى الواقع ميراث القرن الثامن عشر، من حب الاستكشاف والاهتمام بالعلوم مثلاً. هى إعادة لمسلمات رددها المفتونون "بالرجل العظيم" لقرنين من الزمان، إلى أن جاءت فى الستينات من القرن الماضى كتابات "جان تولار" و "جاك دوفرس" لكشف حقائق تمحو كل ما قيل فى الماضى. ناهيك عن كتاب "هنرى لورانس" فى 1989 عن الحملة الفرنسية فى مصر. ولكن الأستاذ الإسرائيلى يتوقف عند كتاب "كريستوفر هيرولد" الذى نشر عام 1964! وهكذا، سنقرأ أن "محمد على" ما هو إلا تلميذ لنابليون، وأن الأخير حاول المستحيل ليحول مشاعر المصريين المعادية لكل "كافر" إلى محبة، ولكنه فشل لقصر مدة إقامته فى مصر ! فالمصريون إذاً لم يرفضوا الغزاة إلا لأنهم غير مسلمين.. ولكننا نشكر الأستاذ الإسرائيلى، إذ أكد لنا أن الوسائل التى استعملها "نابليون" لانتقال الجند ومؤنهم ومستلزماتهم كانت رائدة لجيوش الحرب العالمية الثانية عندما اضطرت إلى السير على الدرب نفسه للانتقال من مصر

إلى فلسطين، متناسياً كلية ما تحمّله جند بونابرت من مشاق فى هذه المرحلة، حتى إنها شبهت بمأساة جنده وهم فى طريق العودة من روسيا، فى حملة نابليون الفاشلة عليها. ولكن ما دامت مصادره قديمة، فلا عجب أن يدلو بدلوه وهو خاطئ. ثم قال إن فكرة تكوين فرقة من الجند الفرنسيين راكبى الجمال، كان لها نجاحٌ كبيرٌ فى الحروب الاستعمارية الفرنسية بعد ذلك.

وخاتمة مقالته تتسم بالغموض كعادة مروجى هذه الأفكار، إذ يؤكد أن "جيش نابليون" ترك بصمات الثقافة والتكنولوجيا فى مصر وفلسطين؛ فكان لها أكبر أثر فى إعادة الحياة للشرق الأوسط". وهو يؤكد دون أي دليل، أن "من الصعب تخيل ازدهار سوريا وفلسطين ومصر فى القرن التاسع عشر دون المطبعة التى أحضرها الجيش الفرنسى، أو التعليم الفرنسى الذى وفره لعدد كبير من اليهود الشباب من خلال: "Älliance Israélite Universelle سابقا المبادرات الألمانية والإنجليزية المماثلة بعدة سنوات". ولم يخبرنا عن تاريخ كل هذا النشاط الثقافى لليهود. وهنا ينتهى مقال الأستاذ الإسرائيلى، وهو يجهل حتى إن الجيش الفرنسى فى انسحابه من مصر، أخذ معه مطبعته!

أما المقال الثانى فهو "للتركى سيشيل كرال أكجون" مكتوب بالإنجليزية والعنوان مشوق: "تأثير الحملة الفرنسية على الإصلاحات العثمانية فى بداية القرن التاسع عشر".

ومنذ الفقرة الأولى، يتضح اتجاه الأستاذ التركى، ما دام تأثير الحملة على "محمد على" هو أهم شىء فى نظره. وهو يجهل ، أو لا يتحدث عن العداء لإنجلترا، الذى كان الحافز الأول لاستعمار مصر وقطع طريق الهند، فما هدف بونابرت إلا إنشاء إمبراطورية استعمارية فرنسية، وقد كان هذا الهدف –فعلاً– من بين أهداف الحملة، ولكن قطع طريق الهند لمحاربة إنجلترا كان السبب والهدف الأول. ويلفت نظرنا، منذ الصفحة الأولى، أن المرجع الأساسى له متمثل فى كتاب "كريستوفر هيرولد" أيضا المنشور فى عام 1964.

ولكن من المفيد أن نعرف – مثلاً – من خلال هذا المقال ، أن جهل البعثة الدبلوماسية التركية فى فرنسا، باللغة الفرنسية، جعلها لا تدرك شيئاً عن الاستعدادات للحملة التى كانت باريس كلها تتحدث عنها. ففطنت الدولة العثمانية إلى الضرورة الملحة لتغيير نظام الإرساليات الدبلوماسية كنظام عام واختيار أفرادها بصفة خاصة وبدقة. كما أن هزائم الجيش التركى أمام الفرنسيين فى مصر أكد ضرورة تغيير النظام العسكرى. استعان "محمد على" بالجنود الفرنسيين الذين اختاروا البقاء فى مصر ومعهم فنيون، وكون جيشاً وأسطولاً على النمط الحديث. ولكن الأستاذ لم يدلنا على أسماء هؤلاء الفرنسيين أو عددهم أو أهميتهم... ربما لأن لا وجود لهم . ففى الواقع كان الذين ساعدوا "محمد على" قد جاءوا من فرنسا بعد ذلك بسنوات ولم يكن لهم أى علاقة بالحملة وما تركته من جنود فرنسيين هاربين من الخدمة فى مصر. ولكن "محمود الثانى" (والكلمة للأستاذ التركى) استعان بخبرة "محمد على"، و"محمد على" طبق دروس الفرنسيين، نستطيع أن نقول: وإذا كان "محمود الثانى كسب الخبرة من "بونابرت"، من خلال تلميذه "محمد على"! وإعجاب الأستاذ بإصلاحات "محمد على" لا حد لها... وكلها من وحى ما قام به "بونابرت" من روائع فى مصر. وهكذا نقرأ أن كل ما حدث فى مصر فى القرن التاسع عشر كان بفضل ما أرساه علماء الحملة من مشاريع.. دون الإفصاح بماهية هذه المشاريع طبعا. ومرة أخرى، يؤكد ما نعرف أنه أسطورة، وهو وجود المطبعة مع جيش الحملة. وهكذا نراه –مثلاً– لا يضع فاصلاً بين ما فعله أطباء جيش الحملة، وما قام به بعد ذلك الطبيب الفرنسى "كلوت بيك" الذى وظفه "محمد على" عندما جاء طالباً وظيفة فى مصر.

إن مصدر إنجازات بونابرت فى مصر التى يتحدث عنها الأستاذ التركى ، هى ما كتبه "نابليون" عن نفسه وهو فى المنفى، أمور لم نقرأ عنها إلا فى كتابات "نابليون" عن تاريخه. وأستاذنا يعيد بثقة عمياء – كل ما قاله "نابليون" ليصل فى خاتمة المقال "لولا الحملة على مصر، ولولا عبقرية بونابرت التوفيقية، ولولا ما تعلمه منه محمد على وبالتالى محمود الثاني... ما أرسى "مصطفى كمال أتاتورك" دعائم الدولة

الحديثة للجمهورية التركية". وعند هذا الحد، توقف الأستاذ – وأنهى مقاله، ولم يذكر ولو بكلمة، إصلاحات سليم الثالث العسكرية وعلاقاته بفرنسا الثورة قبل الحملة على مصر بسنين وقبل "محمود الثانى" و"محمد على".

ونأتى على مقال الفرنسية "ميشال باتستى" عن "معركة أبو قير ونتائجها الاستراتيجية"، مكتوبا بالفرنسية بدون أى مراجع. وهى تصف المعركة البحرية لحظة بلحظة فى مقال قصير لا يأتى بأى جديد، لتصل إلى النتيجة التى عرفها الجميع، بما فيهم "بونابرت" نفسه، منذ دحض أسطوله فى "أبو قير" بعد أن وصل إلى مصر بشهر واحد، وهو أن احتلال مصر قد انتهى، بعد ثلاث سنوات وشهرين، ولكن فشله كان قد تأكد منذ المعركة البحرية الكارثة فى "أبو قير" يوم 1 أغسطس عام 1798، ولكن المقال يفيد من يريد أن يعرف عدد السفن الفرنسية والإنجليزية التى خاضت هذه المعركة، وعدد الموتى والجرحى... إلخ..

فرنسى آخر يتحدث بالفرنسية أيضاً عن معركة "سدمنت" sediman يوم 7 أكتوبر 1798، وهو الأستاذ فرناند بوكور. نعرف أى فِرق من الجيش تحركت وعدد جندها وتحركاتها، ولكن دون أى مرجع يستند إليه. ونعرف بطولة "راب" الذى كان آنذاك "بدرجة كابتن"، وكيف استطاع أن يهزم اثنين من المماليك، وكأننا نقرأ قصص البطولة الرائعة للجند الفرنسيين أثناء الرحلة الاستعمارية لفرنسا، قبل أن يعترف المؤرخون الفرنسيون فى ستينيات القرن الماضى بالحقائق المؤلمة وراء كل هذه البطولات. وينتهى المقال بأن كل هذه "الانتصارات أكدت هدوء مصر"، أمر لم نسمع عنه فى الدراسات الحديثة للحملة، ولا حتى فى الدراسات القديمة. أمر يختلف مع كل شىء، وأولاً وأخيراً، مع الأحداث التاريخية نفسها فى هذه المرحلة.

ومقال "حصن ديتروى" المتقدم: حصن للمراقبة على حافة منطقة عكا، لأستاذ إسرائيلى يكتب بالإنجليزية، اسمه "آرييل برمان"، استطاع أن يحدد موقع مكان، تحدث عنه الضابط "ميو" فى مذكراته الشهيرة عن الحملة، دون أن يذكر اسمه ، قائلاً: "مكاننا فى الجبل" و "جبل الفرسان". ومما يؤكد أن الأستاذ حدد هذا

المكان بالضبط، وكان اسمه Redoute Detroge؛ أى "حصن ديتروى"، أن الأستاذ وجد بقايا كثيرة تؤكد وجود الجيش هناك، كذلك أزرارا تنتمى إلى زى جند الحملة الفرنسية. ولكنه وجد أيضاً اثنين منها تنتمى إلى جند من مالطة؛ فكانت المشكلة التى يود إيجاد حل لها. لأن هذا يثبت أن بعض الجند المالطيين كانوا مع القوة المتجهة إلى فلسطين، أو أن أحد الجند الفرنسيين استعملها لسترته.

آلان برنيد فرنسى يكتب بالفرنسية عن "الاستعمال التكتيكى للألغام أثناء حصار عكا: مثل معركة en mode dégradé ، أثناء الحملة على سوريا عام 1799". أول ما يلفت النظر أنه الوحيد الذى يستعمل اسم "سوريا" ولا يقول "الأرض المقدسة" ثم إنه الوحيد تقريباً الذى قرأ كتاب هنرى لورانس، ولكن فى طبعته الثانية عام 1997 وليس عند نشره لأول مرة سنة 1989. ثم إن كاتب المقال "كولونيل" أى ضابط برتبة عالية، وهو "عضو فى الوفد الحربى لمقاطعة الموز" بفرنسا. إنه جندى وليس أستاذا مثل باقى المشاركين فى الندوة. لذا، جاء مقاله "دراسة حربية متأنية لحصار عكا"، وكل ما يخصه من الناحية الحربية، ومهارة استعمال "اللغم" بالرجوع إلى كل ما فعله "بونابرت" وجيشه لحظة بلحظة؛ مما يصعب تلخيصه، ولكنه شيق ومفيد لمن يهتم بتفاصيل المعارك الحربية.

نقرأ بعد ذلك بالإنجليزية مقال الأستاذ الإسرائيلى "جيديون بيجر" عنوانه: "حملة نابليون وعودة أوربا إلى الشرق الأوسط". إنه – طبعا- يستعمل اسم "أرض مقدسة"، ويسمى بونابرت مثل زملائه "نابليون"، ويقول إن الفرنسيين أدخلوا زراعة القطن إلى مصر وهو خطأ كبير.ولكن كل تأكيداته هى المسلمات التى يرددها كل من يرى أن الحملة هى سبب كل خير جاء فى القرن التاسع عشر، ليس فى مصر فقط بل فى كل الشرق الأوسط، دون تقديم مثل واحد يؤكد وجهة نظر مبهمة كالعادة فى عمومياتها المضللة.

كانت الحملة –مثلا- السبب فى دخول وسائل التفكير الغربية فى الحياة اليومية؛ لأن الشعب رأى سمو الغربيين؛ فأراد أن يكون هو – أيضاً- أوربيا؛ وتعرف على

المسيحية بفضل وصول المبشرين.. إلخ. ومرة أخرى نقرأ أن ما حدث فى عصر إسماعيل باشا (وهذا تعليق منا) يعود فضله إلى الحملة، وهذا كلام غير علمى ، ولو أنه معاد. ولكن الأستاذ الإسرائيلى يقول أيضا: إن الحملة سبب معرفة أوربا بمصر، وقدّم لكلامه ـ بالطبع ـ أكثر من دليل، ولا نرى أن الأستاذ قدم به جديدا، خاصة أنه قاله فى الخاتمة دون أن يعطى أدلة غير ما يعرفه جميع دارسى هذه الحقبة من تاريخ الغرب وعلاقته بالشرق.

مقال الإسرائيلى "آمون كوهين" عن "نابليون وجزار: رؤية محلية" بالإنجليزية: يقدم دراسة وافية وتفاصيل دقيقة عن حصار عكا. ويلفت نظر القارئ أنه لا يتحدث – بتاتا- عن مجزرة الأسرى فى يافا، و"بونابرت" فى طريقه إلى عكا، وهى حادثة مشهورة جداً. قرأ الجبرتى على عكس كل المحاضرين الآخرين، وأنهى دراسته بأن حصار عكا كان فى الواقع معركة بين رجلين، جزار باشا وبونابرت. يقول: إن هزيمة بونابرت لم تكن مطلقة، ما دامت أوقفت القوات العثمانية المرسلة من دمشق، أمر غريب، ما دامت هذه القوات وصلت إلى مصر عن طريق البحر. كذلك لا نراه يعترف بأن هزيمة بونابرت أمام عكا كانت أولى هزائم بونابرت، القائد الذى لم يهزم من قبل.

مقال "مارى كاثرين كونى" بالإنجليزية وهى أمريكية عنوانه: "مصر تستأهل عمة: بونابرت يغازل الإسلام"..

كان "هنرى الرابع" رئيس جيش البروتستنت والوريث الشرعى لعرش فرنسا، ولكنه اضطر إلى التحول للمذهب الكاثوليكى حتى يقبله الشعب الفرنسى ملكا عليه، فى نهاية القرن السادس عشر، وقال آنذاك جملة أصبحت شهيرة: "باريس (أى عرش فرنسا) تستأهل قداسا (كاثوليكيا)". وكاتبة المقال تلعب بالتعبير الشهير، لأن بونابرت كان يظن أن احترامه للدين الإسلامى وطقوسه، سيجعل الشعب المصرى يقبله حاكما عليه. الأستاذة الأمريكية ترجع إلى الجبرتى من بين مراجعها، ولا تضيف جديدا للموضوع ما دامت مراجعها كلها، وما كتبه الفرنسيون فى

جريدتيها فى مصر، للإيحاء بأن المسلمين سعداء باهتمام بونابرت بالإسلام، واحترامه لتقاليد البلد. وهى غير مقتنعة بما قاله الجبرتى، ولكنها مقتنعة بما قاله بونابرت ونقولا ترك.

وفى الخاتمة تؤكد مرة أخرى النظرة الغربية إلى الموضوع، أن ثورة القاهرة، بعد كل ما فعله بونابرت من تودد للإسلام، يدل على أن الفرنسيين لن يكونوا فى نظر المسلمين (أى المصريين) إلا "كفرة" ترفض سيادتهم. وحتى هذا كلام معاد.

"إيران دوليف" طبيب إسرائيلى يكتب بالإنجليزي عن "كيف عالج الطبيب "لارييه "الجنرال" كافاريللى: دراسة حالة فى تاريخ الطب الميدانى" دراسة محددة ودقيقة وشيقة حتى لمن لا يهتم بالطب الميدانى لأنها تعرض –أيضا– عدد الجرحى أثناء حصار عكا، حيث قتل "كافاريللى". والطبيب كاتب المقال يرجع أساساً إلى مذكرات "لارييه" طبيب الجيش، والتى كان يدونها يوما بعد يوم.ولن نعرف إلا ما يخص "كارفايللى"، الجنرال ذو الساق الخشبية، ولا نقرأ كلمة عن الطاعون الذى فتك بالجيش أثناء الحصار وبعده. ثم نعرف أن الإسرائيليين اكتشفوا موقع دفن جثة "كافاريللى" وأقاموا له قبرا ونصبًا تذكاريا.

ويكتب طبيب إسرائيلى آخر هو "موشيه فاينسود" بالإنجليزية أيضا، عن طبيب الجيش "لارييه" وإنجازاته، واحترام "نابليون بونابرت" له، وحب رجال الجيش له وتقديرهم العميق لمهارته وإنسانيته وتفانيه فى خدمة الجيش، حتى إنهم طالبوا بإعادته عندما عادت الملكية إلى حاكم فرنسا، وسرحت كل رجال نابليون وجيشه ولكن ما يقصه علينا لا علاقة له لا بالحملة ولا بالفرنسيين فى مصر والشام.

"والتر جراب" أستاذ إسرائيلى متوفٍ، وأحدث مرجع نشر له سنة 1985 ولا نعرف متى توفى. يكتب بالإنجليزية عن "نابليون المحافظ على الثورة الفرنسية والمحطم لأفكارها".

ويفهم القارئ بسرعة أنه شيوعى قح، يحاكم نابليون بونابرت حسب الفكرة السائدة عند اليساريين عن الثورة المجيدة المنزهة من أى خطأ. ولذا، فنابليون

مشكور لأنه خلص البلاد التى استعمرها فى أوربا من العصر الإقطاعى. ولكنه يعيب عليه"القوانين البورجوازية" التى سنها فى فرنسا، وهى التى جعلت الطبقة البروجوازية تسانده. والأستاذ يقدم تاريخا سريعاً لتشريعات "نابليون" ونتائج الاستفتاءات التى ساندته فى حكمه، جاهلاً -كلية- ما أثبت منذ ستينات القرن الماضى أن كل هذه الاستفتاءات كانت مزورة. وينتهى المقال بتأكيد أن "نابليون" كان وريث الثورة، فى تناقض كامل مع ما سبقه من تقديم وتحليل.

الأستاذة البولندية "مونيكا هامان"، تكتب بالفرنسية عن أشهر بولندى فى جيش الحملة، وهو "جوزف سولكفسكى، ياور بونابرت فى مصر "وهو معروف بكونه من أوائل ضحايا ثورة القاهرة الأولى، وأهمهم شأنا. إنها تعرفنا ببعض الضباط البولنديين الذين حاربوا مع الجنرال بونابرت ثم الإمبراطور نابليون، وكما قالت: "طبعا كان بينهم بولندى يهودى": كان مستشرقاً، وتولى فى مصر أمر المطبعة العربية، "وكتابة مجلة بهذه اللغة": لن نعرف ما حدث لهذه المجلة التى لم نسمع عنها. ولكننا سنعرف كل تفاصيل حياة "سولكفسكى"، المناضل البولندى الجمهورى، والضابط الفذ، كما يتحدث عنه المرجع الأساسى الذى يكتب عن "البولنديون فى مصر"، والذى تأخذ منه الأستاذة كل معلوماتها تقريبا، والذى ينقل لنا ما قيل عن غيرة بونابرت منه، حتى إنه أرسله إلى الموت.

وبعد وفاته، بنى بونابرت حصنا على أنقاض جامع هدمه، وأطلق عليه اسم "سولكوفسكى". وتقول الأستاذة: "يقال: إن آثار هذا الحصن لا تزال موجودة حتى يومنا هذا (...) وفى عام 1834، بنى له الجنرال البولندى "هنريك دمبنسكى" نصبا تذكارياً فى الجزائر، ولكن الأهالى فى باب النصر حطموه بعد بضعة أشهر – ولكن "سولكوفسكى"، بسبب شبابه، ومثالياته، وحياته الصاخبة، تحول فى بولندة إلى بطل لمسرحيتين، ودراسة تاريخية ممتازة، ومقالات أخرى".

وهناك مقالة تحمل عنوان: "رائد حملة بونابرت على مصر: ليبنتز، مؤلف Consilium AEgytpiacum للملك لويس الرابع عشر"، كتبها الأستاذ الإسرائيلى

"ألكسندر يالى هاران" باللغة الإنجليزية. ولما كان هذا الأستاذ قد درس المناخ السياسى الألمانى الذى جعل ليبنتز يكتب لملك فرنسا يحثه على غزو مصر، فقد أضاف إلى ما يعرف – عادة- عن مبادرة ليبنتز فى نهاية القرن السابع عشر، والتى لم تلق من فرنسا أى اهتمام آنذاك. والمعروف عن ملك فرنسا هذا كثرة حروبه، وأطماعه التوسعية. لذا، فكر الفيلسوف الشاب ليبنتز، الذى كان مجهولاً آنذاك، أن يجعله يصرف النظر عن مهاجمة الولايات الألمانية المتاخمة لفرنسا، وقد أوجست هذه الأمارات خيفة من تسليح الملك لجيشه. فلو ذهب الملك الفرنسى إلى الشرق بجيشه، لتفادت هذه الدويلات شر أطماعه. وفى نفس الوقت، سوف يفرح الملك "لويس الكاثوليكى" بهزيمة "كفرة" مسلمين فى مصر. ومن شأن ذلك أن يحدث خللا فى توازن القوى بأوربا.

نعرف أيضا من هذا المقال أن غزو مصر كان من التنبوءات المفضلة لعظماء فرنسا فى القرن السابع عشر، حتى إن "عودة النيل ومصر إلى أيدى المسيحيين" كانا من النبوءات التى استقبل لها العرافون مولد "لويس الرابع عشر" فى أول القرن. ولكن أطماع "لويس الرابع عشر" كانت منحصرة فى أوربا... ولذا، لم يهتم بأمر غزو مصر.

وثمة مقال للأستاذ الألمانى "ماركوس بونكلمان" عن "حملة بونابرت على مصر فى الفن الفرنسى المعاصر"، بالإنجليزية، يضيف الكثير إلى دراسة استخدام "نابليون بونابرت" للفن كدعاية له. وهو يدرس لوحات لم نراها مع الأسف، ولكنه يشرح لنا هدف كل لوحة والأسباب السياسية المعاصرة، التى جعلت رسمها محتما لخدمة أمجاد "نابليون" أو كرد على الاتهامات الموجهة إليه، مثل لوحة "مرضى الطاعون فى يافا" – 1803-. هذه اللوحة رسمت لتبرئه من تهمة قتل جنوده، كما أشيع عند عودته من عكا مهزوما فى 1799.

كان "نابليون بونابرت" مهووسا بذكرى الإسكندر الأكبر، فجاءت اللوحات التى تصوره منتصرا على طول الخط، توحى بأنه "الإسكندر الجديد". والمعروف

طبعا، وهو ما يشرحه الأستاذ باستفاضة، أن كل ما رسم عن "بونابرت" فى مصر، رُسِم بريشة فنانين لم يذهبوا إلى مصر، وبعد الحملة بسنوات.

أما الأستاذ الأمريكى "كيفن مكرين" يكتب بالإنجليزية، ويتحدث عن "عمليات ونتائج وفعالية البحرية العثمانية أثناء غـزو "نابليـون" لمصـر 1798-1801". مرة أخرى، نجد أن أهم مرجع لديه، مثل أغلب المشاركين فى الندوة، هو كتاب "كريستوفر هيرولد"- والمقال- يخص -أساسا- تاريخ الدولة العثمانية، وقصة بحريتها وبكل التفاصيل المباحة. ومرة أخرى، نرى أن "بونابرت" أستاذ "محمد على"، وما دام "محمود الثانى" تلميذ "محمد على"، فالعلاقة قائمة مع الحملة ونتائجها على المنطقة. ألم يسمع أستاذنا بعلاقة الدولة العثمانية الممتازة بفرنسا قبل وبعد الثورة الفرنسية، خاصة فى مجال تحديث الجيش العثمانى؟

مقال الأستاذ الكندى ج.م.ب. "ماكرين" بالإنجليزية وعنوانه: "نابليون وإعادة فتح جزيرة كورسيكا: تمهيد ضرورى للحملة على مصر" . موضوع شيق وجديد، ولم يسبق لأحد التعرض له حسب قراءتنا للكتب التى تتحدث عن الحملة.

ويتضح من المقال أن إنجلترا كانت قد استولت على جزيرة كورسيكا، ولم تفهم الحكومة الإنجليزية آنذاك أهمية الموقع الاستراتيجى للجزيرة، فتركت "بونابرت" يغزوها ويعيدها لفرنسا. كان "باوولى"، السياسى الكورسيكى عدو "بونابرت" والحكومة الفرنسية، قد سلم الجزيرة للإنجليز، وأصبحت من ممتلكات العرش البريطانى، إلى أن أعاد "بونابرت" فتحها وضمها لفرنسا فى 1796. ولو دافع الإنجليز لما أتيح لبونابرت بعد ذلك المرور بسفنه، متجها إلى مصر فى 1798.

وتأتى مقالة الأستاذ الإسرائيلى ديفيد مندلسن بالفرنسية عن "شاتوبريان وحملة "نابليون" بونابرت فى الأرض المقدسة"، وهذا المقال يدل على جهل مطبق بما يخص شاتوبريان، الكاتب الفرنسى والسياسى والرحالة الكبير. وخاتمة دراسة الأستاذ تقدم اكتشافا غريبا، ذلك أنه ما دام "شاتوبريان" بنفسه قال – مرارا - إنه من

سلالة نبيل صليبى، وأنه يدين بنفس أفكار أجداده. فكيف توصل الأستاذ إلى هذه النتيجة المكتوبة فى مقدمة الكتاب الذى يتحدث عنه؟! ولكن المقال يهمنا بالدرجة الأولى، لأنه يتحدث عن الوثيقة المفروض أن "بونابرت" وعد فيها اليهود بوطن خاص بهم فى الأرض المقدسة. فهو يؤكد بالدليل القاطع أن الخبر انتشر ولكن الوثيقة مزورة بدون أدنى شك، ولا علاقة لها ببونابرت ، حتى لو أن "هرتزل" حيّا ذكرى "نابليون" بسبب هذه الوثيقة التى لا وجود لها!!

الأستاذ الإيطالى "لاورو" روسى إيطالى يكتب بالإنجليزية عن: "تقرير نابليون عن حملته على مصر والأرض المقدسة". وينفرد هذا الأستاذ بقراءة آخر ما نشر عن "نابليون" من كتب "جان تولار" و"فرانسوا فوريه"، ولو أنه يجهل كتاب هنرى لورنس الجامع عن الحملة على مصر. ما يقدمه هو سلسلة من كتابات "بونابرت" وخطاباته دون أى تعليق أو تقويم. وهكذا، نقرأ ما سبق أن نشر فى كل الكتب المتخصصة؛ مثلا، أن "بونابرت" أراد أن تكون مصر "مستعمرة"، وأن الأميرال البحرى "برويس" سبب هزيمة "أبو قير البحرية"، أى أن "بونابرت" يلقى بالخطأ على الضابط المتوفى. ولكن الجديد الذى لن يظفر به أى متخصص، أن "بونابرت" طلب من "كليبر" فى التوصيات التى تركها له عند سفره من مصر فى 29 أغسطس 1799 أن "يجمع خمسمائة أو ستمائة من المماليك (وفى حالة الاستحالة) رهائن من العرب (البدو) أو مشايخ البلد" وإرسالهم إلى فرنسا: "سيمكثون لمدة سنة أو سنتين، سيشاهدون عظمة الأمة (الفرنسية)، فيألفون تقاليدنا ولغتنا، وعند عودتهم إلى مصر، يصبحون من أنصارنا". مشروع خيالى – طبعا - وغير عملى البتة فى كل الظروف وخاصة فى ظروف "كليبر" الراهنة آنذاك. لذا، لم يعرها "كليبر" أى انتباه ونسى الأمر. ولكن المعجبين بالحملة حولوه إلى مشروع تعليمى وتحضيرى، دون أن يكون له أساس فى الواقع عند "بونابرت".

ويكتب الأستاذ الإسرائيلى "شيمون شامير" بالإنجليزية عن "الرأى العام المصرى وحملة بونابرت: نقاش حول مرور مائتى عام على الحملة". يبدو أن هذا

الأستاذ كان فى مصر أثناء الزوبعة الإعلامية التى قامت، عندما قيل إن مصر ستحتفل بذكرى الحملة، لأنه يكتب عن كثير مما نشر آنذاك، فى مجالات وصحف قليلة الانتشار، كما يكتب عن أشهر ما نشر من كتب، ومقالات، مثل مقال الدكتور "فؤاد زكريا" ورد الشاعر "عبد المعطى حجازى" وكثرة المناقشات فى الراديو والتلفاز. وهو يحكى ظروف الزوبعة بموضوعية تامة، دون أن يناصر أيًّا من الاتجاهين اللذين رآهما يتبادلان الحجج: فهو يرى أن طرفا رفض الحملة رفضا باتا، وبالتالى رفض فكرة الاحتفال؛ والطرف الآخر، الذى رأى أن هناك بعض العناصر الإيجابية على الأقل، جاءت نتيجة الحملة، فلا يرى هذا الطرف سببا لعدم الاحتفال. والمقال يقدم عرضا شبه كامل لمختلف الآراء والحجج التى استعملها الرافضون، لفكرة حملة ماهى إلا محاولة استعمارية سافرة دون أى فكرة مثالية عن الأفكار التى قال بونابرت إنه جاء إلى مصر ليحققها، كما يقولون.

أما الأستاذ الإسرائيلى "آرييه شمولفيتز" فيكتب بالإنجليزية "فى ظهور المسألة الشرقية: هل كان غزو نابليون لمصر، السبب فى تدخل الدول الأوربية فى الشرق الأوسط؟". يؤكد المقال أن حقيقة الصراع الأوربى العثمانى لم يكن وليد حملة بونابرت، ما دامت العلاقات والحروب بين أوربا والباب العالى بدأت منذ احتلال القوات العثمانية للبلقان، بل ووصول جيوشها إلى أبواب فينا. كانت المعاهدت فى هذه الأثناء تربط بين تركيا وفرنسا، وهولندا، وحتى السويد فيما بعد. وإصلاحات تركيا بدأت فى الواقع منذ بدايات القرن الثامن عشر. ويسرد الأستاذ تاريخ الحروب حتى غزو بونابرت لمصر، مما يدل على أن الأطماع الأوربية لم تكن فى حاجة إلى هذه الهجمة لتظهر فجأة . وجهة نظر تؤكدها الأحداث التى يسردها الأستاذ ولم تأخذ فى الاعتبار آراء من تخيل أن دور بونابرت كبير، حتى فى شئون تركيا الداخلية.

وتحمل مقالة الأستاذ الكندى جيمس شوزنبرج: "معركة الأهرامات (إمبابة)، انتصار تافه"، وهى بالإنجليزية. ونظراً للدراسات التى أثبتت أنها "لم تكن معركة،

بل مجزرة"، فقد جاء المقال مخيبا للقارئ، لأنه لا يضيف أى جديد على سرد أحداث الحملة التى يلخصها ويعيدها كما يعرفها كل من المغرمين ببونابرت، المشيد بأمجاده وصفاته، على الرغم مما كشف عنه فى كتب نشرت قبل هذا المقال بعقود.

وتكتب من كندا أيضا، "هيلين س" سميت عن "فيبيو ونابليون" بالإنجليزية. نتعرف معها على تاريخ حياة "زميل بونابرت" فى الدراسة، وسر صداقته للبحّار الإنجليزى "السير وليم سدنى سميث"، بكم هائل من التفاصيل، ثم نصل إلى صلب الموضوع، وهو مساعدة "فليبو لجزار باشا" أثناء حصار عكا. وأنه لولا هذه المساعدة، لما صمدت عكا... هذا ما قاله نابليون فى نهاية حياته، فى المرجع الذى ترشدنا إليه الكاتبة نفسها، دون أى روح نقدية أو تحليلية. وقد أعاد هذا الكلام نفسه نقلا عن نفس المرجع، كل من لا يقبل أن يهزم بونابرت إلا فرنسى من بنى جلدته.

والأستاذ "جون ستانلى كندى" آخر، يكتب أيضاً بالإنجليزية، عن "البولنديون فى الحملة المصرية لنابليون" أنهم سبعة، بينهم يهودى واحد، وانضمامهم لجيش الحملة كان على مستوى فردى؛ لأن مشروع تحويل ثمانية آلاف (8000) أسير بولندى بعد الحرب فى إيطاليا، إلى فرقة تسافر مع "بونابرت" إلى مصر فشل؛ لاحتياج الفرنسيين إليهم فى سيطرتهم على "جمهورية روما".

نتعرف من خلال هذا المقال، على تاريخ هؤلاء السبعة الذين رافقوا بونابرت إلى مصر، وكانوا متحمسين جدا لمشاريعه، وأشهرهم -طبعا - ياوره "سولكفسكى"، الذى مات فى مصر. ولكن علاقة "نابليون" بالبولنديين استمرت حميمة طيلة حياته. وقد ساعدهم على إحياء دولة بولندية مستقلة، لا حبا فيهم، ولكن لإضعاف المملكة البروسية.

وتأتى مقالة الكلونيل "جاك قرنيه" الضابط الفرنسى بالفرنسية عن "سياسة فرق الجنود". والمقال مهم لما يقدمه القارئ من معلومات جديدة، والدراسة ناضجة لا تخشى الحقائق المؤلمة للشوفينية الفرنسية، لذا، سنعرف فى آخر المقال ،

بعد أن قدم كاتبه كل الفِرق وما صاحبها من إعداد، أن "جيش الشرق"، الذى كان يتكون من خمسة وثلاثين ألف جندى لم يعد منهم عام 1801 إلا 21.180: رقم دقيق يشرحه الضابط الكاتب، مؤكدا أن 47٪ ماتوا فى المعارك، و57٪ بسبب الطاعون والأمراض، وهو يرى أنه ثمن باهظ ما كان له أن يدفع. والمقال مفيد من حيث تصنيف الفرق ومسئولياتها.

وفى النهاية ، يلخص الأستاذ الإسرائيلى ج.ديفيد مرخام بالإنجليزية، ما قدم فى الندوة، فى ورقة عنوانها: "نابليون فى الأرض المقدسة: الأسباب والنتائج. مسح للدراسات المقدمة فى الجمعية النابليونية العالمية فى إسرائيل 1989". ونفهم أن ما نشر ليس كل ما قدم فى هذه الندوة.

يأتى تلخيص سريع، أحسن من الأوراق نفسها، إذ يستخلص منها ما يبدو أنه جديد بالنسبة لهم. وهو يرى أن الدراسات الحربية طغت على أوراق الندوة، ولكنها قدمت معلومات جديدة ومهمة. مثلا تفوق البحرية على جيش الأرض فى معارك الحملة، والنظام الذى اتسمت به جيوش بونابرت، فكان تفوقها على جيوش العثمانيين، مع أن عدد جندهم كان أكثر بكثير من عدد الجند الفرنسيين. كما أشار إلى أن بونابرت لم يختلق جديدا فى تنظيم معاركه، فقد استفاد مما ابتدعه من قبله ملك بروسيا النابغة فردريك الثانى، فى منتصف القرن الثامن عشر. وهذا كلام معاد، قيل قبل ذلك مرارا، ولا يرى فيه المتخصصون جديداً منذ ستينات القرن الماضى.

* * *

أيا كان، فقراءة صفحات هذه الندوة ستكون بلاشك مفيدة لمن يجهل ما كان يقال عن الحملة وبونابرت قبل انعقادها بثلاثة عقود. فأصحاب الأوراق فى هذه الندوة، لم يقرأوا تقريباً إلاَّ الكتب القديمة، ولم يعرفوا كتاب هنرى لورنس عن الحملة الفرنسية على مصر، المنشور سنة 1989، ما عدا أستاذًا واحدًا أشرنا إليه فى

حينه. هذا الكتاب غيّر كلية النظرة إلى الحملة، إذ اعترف فيه بما كان الفرنسيون يتجاهلونه فى كتبهم المتخصصة، كما درس فيه الحملة من كل جوانبها وناقش ما قيل عنها قبله. إننا نلحظ أن أغلب المشتركين فى الندوة توقفت قراءاتهم عند كتاب كريستوفر هيرولد عن الحملة (1964). وواحد فقط تعرف على كتب "جان تولار" التى كشفت عن حقيقة "نابليون بونابرت" بعيدا عن أسطورته الخادعة، فغيرت النظرة فيما قاله "نابليون" نفسه عن تاريخه. العجب أن هؤلاء الأساتذة يسترشدون به بلا أى روح نقدية تصل إلى درجة السذاجة، وكأن "نابليون" سيسجل للتاريخ ما كان يشينه. لذا، لم يتعرض أحد من المشاركين فى الندوة، إلى ثورتى القاهرة، أو مجزرة الأسرى فى يافا و"بونابرت" فى طريقه إلى عكا وحصارها الفاشل.

كـانـت هذه هى مفاجأة أوراق هذه الندوة. فعلى الرغم من أنها عقدت سنة 1999، والمشاركون أغلبهم متخصصون، إلا أن قلة ضئيلة – أشرنا إليها فى قراءتنا لأوراقها – أضافت القليل إلى ماهو معروف عن الحملة منذ ستينات القرن الماضى، أى نحو ثلاثة عقود قبل انعقاد الندوة. فالمعلومات متوقفة عند النظرة التقليدية التى تنبهر بكل ما يفعله "نابليون بونابرت". إنهم –مثلا– يتحدثون عن الجنرال "بونابرت" على أنه "نابليون"، أى الإمبراطور، فاستعمالهم لهذا الاسم يؤكد مقولة: لولا تحول قائد الحملة بعد ذلك إلى نابليون الإمبراطور الذى استعمر أوربا كلها، لما تحدث أحد عن حملته الفاشلة على مصر.

أيضاً نلحظ أنه ما من أحد قال عن حملته فى فلسطين، التى كانت تسمى "سوريا" آنذاك، إنها كانت فى "الأرض المقدسة"؛ علاوة على أن وجوده فى هذه المنطقة، لم يتعد الأشهر الثلاثة! ولكن منظمى المؤتمر أخذوا المشتركين فى رحلة سياحية علمية إلى أماكن المعارك فى المنطقة، والمعروف أيضا أن هذه المعارك لا قيمة لها، ما دامت لم تأت بأى نتيجة فعلية، لولا المهارة الإعلامية "لبونابرت"، والتى وظفتها "الجمعية الإسرائيلية" لصالحها فى هذا المؤتمر. ويظهر –جليا– أن الورقة التى قدمها "مردخاى جيشون" – أحد أعضاء اللجنة المنظمة للندوة– والتى

قدمت على أنها "المقدمة"، والتى تتحدث عن وعد "بونابرت" بإنشاء "وطن خاص لليهود فى الأرض المقدسة"، مع أن الوثيقة التى تتحدث عن هذا مزورة، سيتضح منها أن الهدف الأول والأخير لهذا المؤتمر هو الدعاية لهذه الفكرة، وتأكيد حق اليهود فى امتلاك "الأرض المقدسة" و"عاصمتها القدس".

* * *

obeikan.com